منظمة
الصحة العالمية

جمعية الصحة العالمية الحادية والستون
البند ٤ من جدول الأعمال

ج٦١/ متنوعات/ ٦
٢٦ أيار/ مايو ٢٠٠٨
A61/DIV/6

خطاب نيافة ديزموند مبيلو توتو كبير الأساقفة الفخري في كيب تاون والحائز على جائزة نوبل أمام جمعية الصحة العالمية الحادية والستين

جنيف، الثلاثاء ٢٠ أيار/ مايو ٢٠٠٨

سيدي الرئيس، أودّ أن أعرب لكم عن شكري على هذه المقدمة. حضرة السيدة المديرة العامة، حضرة صاحبة السمو الملكي، حضرات أصحاب المعالي وزراء الصحة، حضرات المندوبين الوافدين من جميع أنحاء العالم، أصدقائي الأعزاء،

ما أجمل هذا الشرف العظيم الذي أتشرف به للتحدث إليكم. ولعلكم تتطلعون إلى معجزة لأنني واعظ، ولأنكم وضعتم هذا الواعظ أمام جمهور جذاب، وأعطيتم هذا الواعظ منبراً، وتتوقعون بعد ذلك ألا يطيل هذا الواعظ في الكلام، وهذه معجزة!

وهذا الوضع يذكرني بقصة صبي ذهب إلى الكنيسة مع أمه. وكان أمام الكنيسة مصباح أحمر. وبعد فترة طويلة من وعظ لا ينتهي مهما طال، سأل الصبي أمه "أماه، هل سنعود إلى المنزل عندما يتحول لون المصباح إلى الأخضر؟" وأملي ألا يساوركم الآن شعور ذلك الصبي.

إنه لشرف عظيم أن أكون معكم هنا في هذه السنة الستين من تأسيس منظمة الصحة العالمية. هذه المنظمة المسؤولة عن الصحة وحامية حق جميع الشعوب في بلوغ أرفع مستوى صحي ممكن.

وأود أن تعلموا أنني عندما حضرت إلى هذه المدينة انتابتني وعكة وشعرت كما لو كنت على شفا الموت. ولكني ما أن وصلت إلى هذه المنظمة تأكد لي أنها تستحق شهرتها عن جدارة، لأن أحد أطبائها الدكتورة باسكال جيلبير- ميغي بادرت إلى الكشف عليّ وعالجتني، وها أنا أمامكم اليوم بأتم عافية. فلنحيّها بالتصفيق. ولقد أصبح بوسعي أن أؤكد لكم أن حالتي تحسنت تحسناً كبيراً. وإذا أعطيتكم خلال خطابي شعوراً بأنني ذكي فاعلموا أن ذلك من أفضال الأب تيد كاربف، لأنني إذا قلت الخير لكان السر كامناً في نطقي بالكلمات التي أعدها ذلك الراهب.

إن هذه السنة مباركة لأنها أيضاً السنة الستون لتوقيع إعلان الأمم المتحدة لحقوق الإنسان. وهي أيضاً العيد السنوي الثلاثون لإعلان ألما-آتا بشأن الرعاية الصحية الأولية، والعيد السنوي السابع لإعلان أبوجا الذي تعهد رؤساء الدول الأفريقية بموجبه بتخصيص ١٥٪ من الميزانيات الوطنية لصالح الصحة.

وهذا يعني أن بوسعنا تجاذب أطراف الحديث حول عدة مواضيع مهمة. فقد تسلمت رسالة من حركة حماية المستهلكين الدولية تحرضني على إثارة الموضوع الذي ذكرته صاحبة السمو الملكي، ألا وهو سمنة الأطفال، إذ يبدو أن ٢٢٪ من أطفال العالم الذي لم يتجاوزا الخامسة من عمرهم مصابون بفرط الوزن. وقال لي بعض الناس في مجلس الكنائس العالمي إنهم يريدون منّي أن أذكر العواقب الوخيمة لإصابة الأطفال بمرض الأيدز، وأعطوني قميصاً (تي شيرت) دعائياً لألبسه، ولكنه لا يليق مع الزي الأرجواني الذي أرتديه. وهكذا احترت في الاختيار.

وعندما فكرت ملياً في الموضوع الممكن، عجبت من نفسي غصباً عني، لأن الحديث عن قضايا الصحة أمامكم ضرب من الغرور، فأنتم أرباب المهنة ولديكم عدد غفير من الخبراء الذين تستطيعون الاستعانة بهم، وهم الذين يملكون البيانات المحددة عن كل مجال يهمكم.

ورأيت من الأنسب والأقل غروراً أن أتحدث إليكم عن موضوع يدخل في اختصاصي أنا ألا وهو الروحانية والدين والأخلاق. وبوسعي أن أتحدث عن هذه المجالات بكل اطمئنان، بل وربما أيضاً بقدر يسير من الثقة.

وإذا فكرنا مرة أخرى في تاريخ هذه المنظمة ودستورها وجدنا أن حق التمتع بالصحة لم يبلغ ذروته بعد. فالصحة ليست مجرد المعافاة البدنية والنفسية والاجتماعية، وإنما يجب أن تشمل المعافاة الروحية. وسأحاول شرح ذلك:

لديّ كتاب مفضل من كتب الرسوم الكاريكاتورية عنوانه "ربي"، أعده الراحل ميل كالمان الذي كان يعمل في جريدة "أوبزرفر". وأحد هذه الرسوم يصور ربّاً مرتبكاً شيئاً ما ويقول "يا للهول، يبدو أنني فقدت نسختي من الخطة الربانية!". وإذا نظرنا إلى حالة العالم اليوم لغفر الرب لنا اعتقادنا بأن ليس لديه أي خطة على الإطلاق. فالفيضانات مخربة في ركن ما والجفاف مدمر في ركن آخر. أفلم يكن بوسع الرب أن ينظم الأمور تنظيماً أفضل بحيث يعطي القدر الكافي من الماء للجميع؟ ولنضف إلى ذلك جميع الكوارث التي صنعها الإنسان بيده بالطغيان والقمع والمحن التي لا حصر لها.

لقد طالت طوابير اللاجئين الذين يجرّون أقدامهم في الوحل بسبب الكوارث الطبيعية والمفتعلة. وكثرت ضحايا العنصرية والنزاع العرقي وكره الأجانب، أو ليس من المفزع حقاً ما نقرأه عما يحدث في بلدي؟ ومازالت أمامنا نوازل تغير المناخ والتدهور الإيكولوجي التي تنذر بها موجات التسونامي والأعاصير والزوابع الرعدية.

ولعلكم تدركون بصفة خاصة الكرب الذي سببته أمراض مثل السل، والملاريا، ومرض الأيدز والعدوى بفيروسه، والعمى النهري، والشلل، والكوليرا، ووفيات الأطفال، ومراضة الأمهات، التي أطنبت في ذكرها صاحبة السمو الملكي، وكثير من هذه الأمراض ينجم عن الفقر حتى إن الأطفال يموتون بأمراض يسهل توقيها بالتطعيم أو التلقيح بأسعار زهيدة؛ وكثير من الأمراض ينجم عن نقص المياه النقية وقلة الإصحاح السليم وعدم لياقة المسكن. والشر ينتابنا عندما نرفض توفير الحلول لنصحح أممنا أو عندما تصبح حركتنا مشلولة بسبب البيروقراطيات أو الفساد.

ويجب ألا ننسى أبداً أن مهمتنا، كقيادات حكومية، أن نقضي على الجهل، وأن نستعيد العدالة، وأن ندافع عن الحرية. إن هذه المهمة تلزمنا بضمان تحقيق السلام وبناء العافية. ذلك أن الكثير من الأمراض وآلام القلب يمكن اتقاؤها إذا توافرت الإرادة السياسية لدى الحكومات – إن حملة ١٥٪ الآن 15% Now campaign

تسعى إلى حث رؤساء الدول الأفريقية على الوفاء بالتزاماتهم، ومن ثم الحيلولة دون وفاة ثمانية ملايين من مواطنيهم بلا داع.

ثم إن هؤلاء القادة يعبثون بسلامة شعوبهم وصحتهم. فنجد في هذه الأماكن أن الأطفال أيضاً جُنِّدوا في صفوف العسكر وبالمثل، نجد الآباء بلا حول ولا قوة، يرقبون أطفالهم وهم يموتون، إما لأن الدواء أصبح عديم الفائدة بسبب عدم وجود الكهرباء وبالتالي لا توجد ثلاجات، وإما لاحتجاز الأدوية في نقاط التفتيش فلا تصل إلى المستشفيات في الوقت المناسب، هذا إن وصلت. أيها الأصدقاء الأعزاء، إن الصحة لا تنفصل بحال عن التأثيرات القاتلة للعيش تحت تهديد الإرهاب والاضطهاد والطغيان. لقد أفلتت الأمور من الزمام. وأصبح الشر واقعاً يوشك على الانقضاض.

إننا في لجنة تقصي الحقائق والمصالحة في جنوب أفريقيا قد صدمتنا قصص الأعمال الوحشية التي ارتكبت. لقد قال أحدهم: "لقد أسقيناه المخدر في القهوة وأطلقنا النار على رأسه، ثم أحرقنا جثته. لقد استغرق الأمر ٧ إلى ٨ ساعات، وفي غضون ذلك كنا نشوي اللحم ونشرب البيرة". فما الذي حدث لإنسانية هؤلاء المجرمين فجعلهم ينحدرون إلى هذا الدرك؟. نحن يمكننا أن نحرق إنساناً هنا. يمكننا أن نحرق إنساناً ثم نشوي اللحم. يمكننا أن نحرق إنساناً ونشرب البيرة. لقد أدركنا بالطبع أن ذلك يشهد على أننا جميعاً لدينا قدرة هائلة على ارتكاب الشرور. إن هؤلاء الذين ساندوا هتلر لم تكن لهم قرون ولا ذيول. لقد كانوا بشراً مثلنا، بل كانوا شخصيات بارزة يحترمهم أفراد مجتمعاتهم. نعم إننا جميعاً لدينا القدرة على الانحدار.

ولكن المثير للعجب فعلاً، أن ما قلته ليس القصة كاملة، ولا هو الجزء الأهم من القصة. المثير للعجب، والمثير للابتهاج، أن هناك جانباً آخر رائعاً. لقد رأينا مشاهد غير عادية تقوم دليلاً على شهامة ضحايا الأعمال الأشد وحشية، هؤلاء الذين مزقتهم المرارة وشهوة الانتقام، لقد شهدنا كيف نطقوا بكلمات الصفح وكلمات السماحة إلى من عذبوهم نهاراً جهاراً ثم احتضنوهم بعد ذلك، وأدركنا بعد ذلك أننا بالفعل لدينا القدرة على اقتراف الشر، ولكن المثير للعجب فعلاً، كما قلت، إن لدينا تلك القدرة المدهشة على الخير.

لقد قمنا نحن، كبار السن في تلك اللجنة، بزيارة دارفور – ولا يمكن للكلمات وحدها أن تحكي نصف قصة الرعب الذي وجدناه هناك. لقد التقينا بالنازحين، والمذهل في الأمر أن بإمكانهم أنهم يستطيعون أن يضحكوا. يا له من مثال غريب على مرونة الروح البشرية في مواجهة الظروف المروِّعة. لقد كان المسلمون من الرجال يرتدون ملابس بيضاء لا شية فيها. ونظرت حولي فإذا بالقذارة في كل مكان وسألت نفسي من أين جاءوا بالماء. إن الأمر كله يشهد على الروح البشرية العجيبة، القدرة على الضحك، القدرة عل التمسك بالكرامة واحترام الذات، وعلى رفض أن ترى نفسها ضحية، أو أن تكون محل شفقة.

وبعد ذلك، أُعجبنا بجانب آخر من المشهد المثير للحزن- العاملون في الأنشطة الإنسانية الجديرون بالثناء. هؤلاء كانوا مواطنين من مناطق مختلفة، وكان بمقدور معظمهم أن يحيوا في أوطانهم حياة ملؤها الراحة والأمان. ولكن كلا، لقد أتوا إلى هناك، وبعضهم يعود أكثر من مرة إلى ذلك المكان الكئيب، والمفتقر للأمن تماماً، حيث يتعرضون لمخاطر الاختطاف، ويا ويل الضحية إن كانت امرأة، فإنها تتعرض لمحنة الانتهاك الجنسي، بل وأشد من ذلك.

وبرغم ذلك، وبرغم ذلك كله، هم هناك مثلما يوجدون في العديد من الأماكن الأخرى من العالم التي تئن من الألم إما بسبب الكوارث الطبيعية وإما بالكوارث التي هي من صنع الإنسان. كانوا هناك وقد تفانوا في أعمالهم بجدّ والتزام يشعرك بفخر الانتماء إلى الإنسانية. كما أن العديد من هؤلاء الذين تمثلونهم، تجدهم في الصحبة الكريمة للعاملين في الأعمال الإنسانية، كالأطباء والممرضات والعاملين في الإسعاف، الذين كرسوا

أنفسهم للعمل مع من يعالجون آثار الكوارث البشرية مثلما كرسوا أنفسهم كجزء من هذا العالم. يا لها من منظومة رائعة للخير، وللتراحم، وللرعاية؛ لمواصلة المشروع الإلهي لمداواة جراح عالم مجروح مهيض الجناح؛ ولرأب الصدع وتخفيف الآلام.

إنكم جميعاً، فرداً فرداً، بمن فيكم هؤلاء الذين يعملون في المنظمات غير الحكومية في العالم؛ إنكم جميعاً يا من تعملون في مشروع تضميد الجراح، إنكم جميعاً تعاونون الرب في جعل هذا العالم عالماً أفضل، وأكثر تراحماً، وأكثر عطفاً، وأكثر رعاية، وأكثر بذْلاً. إن صحف إبراهيم تشير إلى أن الرب جعل هذا العالم منقوصاً، عمداً لكي يسخرنا في جعله عالماً فاضلاً.

عندما كنا نحارب شرور التمييز العنصري، نجحنا في الحفاظ على الروح المعنوية والأمل لشعبنا وبعث الأمل في نفوسهم في ما كان يبدو نضالاً غير متكافئ، بتذكيرهم "بأن عالمنا هو عالم أخلاقي"، وأن الأخطاء والشرور والظلم والكبت لن تكون لها الكلمة الأخيرة. قد نقول "هذا هو عالم الرب، والرب مسؤول عنه". وربما تريدون أن تناجوا الرب وتقولوا، "أيها الرب نحن نعلم أنك مسؤول عن العالم، ولكن لماذا لا تجعل هذا الأمر أكثر وضوحاً؟"

نعم، **لن** تكون للأخطاء والشرور الكلمة الأخيرة. بل سيسود الخير، والتراحم، والحب، والعدل، والضحك، والرعاية، وستنتصر هذه المفاهيم على خصال الشر. إن الطغاة والمستبدين ومجترحي الظلم والاضطهاد، قد يتباهون ويختالون، كما لو كانوا أبطالاً لا يقهرون. ولكنهم سيحصدون عاجلاً أو آجلاً ما جنت أيديهم وسوف يلقون جزاءهم العادل، وسوف يسفون التراب في ذلة ومهانة. هذا هو حكم التاريخ، أين الطغاة والجبابرة ودعاة التمييز العنصري، وغيرهم وغيرهم، أين هم الآن؟ كلا، ثم كلا، فلن نشمت بهم.

ويتضح من شهادات الأجيال أنه ليس هناك أي حالة تستعصي على التغيير. وليس هناك في الوجود شخص واحد دون رجاء، أي بعبارة أخرى، لا يمكن لأي كان أن يفقد الأمل والعلاج. ولا وجود لأي ظروف يتعذر على الإنسان تغييرها بفضل قدرته الفطرية على حب الآخرين. ومن الضروري أن يشهد العالم على تحقيق هذه الأفكار من خلال الوعود التي تقطعها المنظمة بالنيابة عن كل الشعوب والمجتمعات والأمم، وذلك لأننا بحاجة إلى بعضنا البعض لكي نتحرر فعلاً ونصبح إنسانيين حقاً ونتمتع بعافية خلقنا الروحية في إطار علاقتنا مع الله ومع بعضنا البعض.

وعندما نستعرض الحق في الصحة، لا يسعنا إلا أن نلاحظ أن نطاقه العالمي يشمل آمال وتطلعات شعوب العالم كافة. والمنظمة مدعوة أيضاً إلى حماية الأمم- الدول الأعضاء، كما تسمونها- وتوجيهها وإلى توفير الحماية لرعاياها وضمان تمتع الناس أجمعين بالحق في الصحة. وهذا ميثاق مقدس ومهيب- وهو وعد أنتم مدعوون إلى الوفاء به. واسمحوا لي أن أشكركم على التزامكم الرصين وما يعنيه ذلك بالنسبة لحياة أكثر من ستة مليارات نسمة من سكان الأرض.

وإنني أعرب عن امتناني فعلاً، وكذلك عن امتناننا جميعاً في أفريقيا، لأن السيدة مديرتكم العامة قد أصبحت بالفعل شريكة للرب في الخلق بتبديدها للشواغل الصحية الهامة في أفريقيا وإدراج صحة المرأة والفتاة كمسألة جوهرية ضمن أولوياتكم. تصوروا حضرات السادة، تصوروا إن شئتم، أن مهد البشرية معرض على نحو مزعزع - بسبب المرض والقتال والدمار- لأن يصبح مثواها الأخير؟ فمحال أن نخسر أفريقيا! لأننا نغني دوماً في بيوت عبادتنا ترنيمة "فليبارك الرب أفريقيا ويرشد قادتها ويحرس أطفالها ويمنحها السلام".

وإنها لمحض صدفة ربانية أن يُحتفل أيضاً بالقرب من مجلس الكنائس العالمي بالعيد الستين لتأسيس المنظمة، التي تشاطر المجلس مجتمعين مهمة مشتركة تجاه العالم، ألا وهي حماية الأبدان والعقول والأرواح وإعادتها إلى سالف عهدها من العافية. ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن هذا هو العيد الأربعون أيضاً للّجنة الطبية المسيحية التي عملت قيمها وخبرتها في مجال الرعاية الصحية الأولية على إثراء وصياغة المبادئ التوجيهية للمنظمة لعام ١٩٧٤ بشأن الرعاية الصحية الأولية، والتي تم تأكيدها مجدداً في إعلان ألما-آتا.

وكما ترون، فنحن والإيمان والصحة نتجاور منذ فترة طويلة جداً. فالصحة لا تعني التحرر من المعاناة والمرض فحسب، وإنما تعرّف وفقاً لدستوركم كما يلي: "الصحة هي حالة من اكتمال السلامة بدنياً وعقلياً واجتماعياً، لا مجرد انعدام المرض أو العجز". وتقدس هذه العبارات السبب الجوهري الذي يقف وراء وجودكم هنا وتشير إلى بعض ما نتقاسمه في إطار التزامنا معاً تجاه العالم. ولعل من الأفضل لنا أن ندرج هاهنا موضوع الاعتراف بوجود علاقة جوهرية بين الرب والبشرية، والتي يمكن التسليم بها على أنها "المعافاة الروحية"؟ ولربما يأتي يوم يمكن فيه إدراج فكرة المعافاة هذه في تعريف الصحة الذي تعتمده المنظمة؟

إنكم أوصياء على الحلم المتمثل في "توفير الصحة للجميع". وأنتم تملكون الفرصة والإمكانيات اللازمة لقيادة العالم إلى ملاذ صحي. فأنتم من شرع العدالة: عدالة توزيع ثروات البلد من أجل توفير الصحة؛ وعدالة بلوغ المرامي الإنمائية للألفية؛ وعدالة إنقاذ أرواح شعوبكم، وتمكينهم من تحقيق الازدهار للأمم التي تنتمي إليها وإقامتها على أسس صحية! فالرب يراقب والناس كذلك. وأنتم مكلفون بالمضي من أجل مسح الدموع من جميع الوجوه ومنحها حياة مفعمة بالقوة والأهداف في السعي من أجل إحلال السلام.

وقد تخيلت أحياناً أن الرب عندما يطل من أعلى على الفوضى التي أحدثناها، فإنه قد يتساءل، "ما الذي دفعني إلى أن أخلق هذا الكم الهائل من الناس؟" ويجهش بالبكاء؟ ومن ثم ينظر ثانية إليكم وإلى سائر من يريدون مساعدته في تغيير هذا العالم إلى حال أفضل، وهنا يا صاح، تبدأ ابتسامة بالارتسام على محيّا الرب كشمس تشرق من خلال الغيم والمطر، فيقول الرب، "آه، نعم، نعم هذا سبب خلقي لهم، إنها يبررون ما صنعت". وهنا يأتي دور ملاك صغير، هل رأيتم هذا الملاك؟ وهو يمضي ليمسح الدموع من عيني الرب.

ويقول الرب، "أرجوك ساعدني، ساعدني رجاء على تحقيق حلمي في أن يعرف أبنائي جميعاً أنهم أخوات وأخوة وأفراد أسرة واحدة، أسرة البشرية، أسرة الرب- أرجوك ساعدني، ساعدني؟ ساعدني على أن أجعل هذا العالم مكاناً يعمه التراحم والشفقة؟ أرجوك ساعدني على أن أجعله أكرم، وأرجوك ساعدني على أن يكون أكثر تعاطفاً؟ ساعدني؟ ساعدني؟ ساعدني؟ أرجوك ساعدني؟"

= = =